المحاضرة الخامسة عشر: أدب الطفل في الجزائر – الواقع والآفاق

أولًا: مدخل

يُعدّ أدب الطفل أحد أهم المكونات الثقافية في أي مجتمع، لأنه يُعبّر عن رؤيته للإنسان والمستقبل، ويُسهم في بناء وعي الأجيال الجديدة بالهوية والانتماء والقيم.

وفي الجزائر، اكتسب أدب الطفل أهمية متزايدة منذ الاستقلال، باعتباره وسيلة لبناء جيل وطني مثقف، واعٍ، ومنفتحٍ على قيم العصر.

ومع ذلك، ما زال هذا الأدب في الجزائر يواجه تحديات واقعية كبيرة تحدّ من قدرته على بلوغ المستوى المنشود، رغم ما تحقق من إنجازات على مستوى النشر والإبداع والتجارب المؤسسية.

ثالثًا: نشأة وتطور أدب الطفل في الجزائر

وفي السياق الجزائري، يتخذ أدب الطفل بعدًا مزدوجًا: بعد وطني تربوي: يهدف إلى غرس روح الانتماء والهوية، وبعد جمالي ثقافي: يربي الذوق الفني ويحفّز الخيال والإبداع،

.1مرحلة ما قبل الاستقلال (قبل 1962):

كانت معظم النصوص الأدبية الموجهة للأطفال شفهية، تنتمي إلى التراث الشعبي الجزائري: الحكايات، الأمثال، الألغاز، والأغاني التراثية، وكانت الجدة أو الأم تمثل وسيلة النقل الثقافي الأساسية، ومن أبرز الحكايات الشعبية: حكاية الغولة، عمي لخضر، بنت السلطان... وغيرها.

.2مرحلة ما بعد الاستقلال (1962–1980):

اتجهت الدولة الجزائرية بعد الاستقلال إلى بناء مشروع ثقافي وطني، فتمّ إدراج أدب الطفل ضمن المناهج التعليمية والإعلام الثقافي، وظهرت مجلات مثل: مجلّة "مينة" للأطفال (1976)، مجلّة "رياض الأطفال"، كما بدأت محاولات فردية لكتابة قصص وشعر للأطفال، تركّز على القيم الوطنية والتحرر والهوية.

.3مرحلة التسعينيات (1990–2000):

شهدت الجزائر في هذه الفترة أزمة أمنية وثقافية، مما أثر سلبًا على الإنتاج الأدبي عمومًا، بما في ذلك أدب الطفل، فتراجعت المؤسسات الثقافية، وقلّ النشر الورقي للأطفال، غير أن الإذاعة والتلفزيون ساهما في حفظ الاستمرارية عبر برامج مثل: نادي الأطفال"، حكايات جدّي"، حديقة الأطفال."

.4مرحلة الألفية الجديدة (2000 إلى اليوم):

عرف أدب الطفل تحوّلات كبيرة بفضل الانفتاح الإعلامي والرقمي، حيث ظهرت مبادرات نشر خاصة، مثل دار "الجزائر تقرأ"، "كلمة"، و"البرزخ"، إضافة إلى جهود الوزارة والمكتبة الوطنية في تنظيم مسابقات للأطفال وورشات للكتابة، كما برزت أسماء جزائرية لامعة في هذا المجال مثل:

- ✓ زهور ونيسي في القصص التربوية.
- ✓ أحمد بلهادي وعيسى بن محمود في القصص المصورة.
- ✓ مليكة ماضي ونبيلة سنجاق في أدب الخيال الموجه للأطفال.
- ✓ وبعض الرسامين الشباب الذين أسهموا في الكتاب المصوّر التفاعلي.

رابعًا: خصائص أدب الطفل الجزائري

1. **الطابع الوطني والهوياتي:** معظم الإنتاجات تركز على القيم الوطنية، وذكر رموز الثورة، وغرس حب الوطن واللغة العربية، مثال: قصة "من وحي النضال" التي تعرّف الأطفال بأبطال الثورة.
2. **الوظيفة التعليمية التربوية:** كثير من القصص تُوجَّه لخدمة المناهج التعليمية، فترتبط بالمدرسة، وتقدّم القيم الأخلاقية والدينية بلغة مبسطة.
3. **الاستلهام من التراث الشعبي:** يستمدّ الأدب الجزائري مادته من المخيال الشعبي: الحكاية التقليدية، الأمثال، الأبطال الأسطوريين، والرموز التراثية.
4. **اللغة البسيطة المشوقة:** يعتمد كتّاب الطفل الجزائري لغةً عربية ميسّرة قريبة من الفصحى اليومية، مع تجنّب التعقيد.
5. **الاهتمام بالصورة والوسيط:** في السنوات الأخيرة، ظهرت محاولات لتوظيف الصورة والرسم لتقريب المعنى للطفل القارئ غير المتقن.

خامسًا: واقع أدب الطفل في الجزائر

رغم الجهود المبذولة، فإن واقع أدب الطفل الجزائري ما يزال يعاني من نقائص بنيوية وثقافية، أبرزها:

1. **قلة الإنتاج المحلي المنتظم:** الإنتاج السنوي من كتب الأطفال ضعيف مقارنة بالدول العربية الأخرى، ويغلب عليه الطابع الفردي والاجتهادي.

2. **ضعف التوزيع والانتشار:** الكتب الموجهة للطفل لا تصل إلى كل المناطق، خصوصًا الريفية، كما تظل أسعارها مرتفعة.

3. **هيمنة الإنتاج المترجم والمستورَد:** كثير من الأطفال الجزائريين يقرأون أو يشاهدون أدبًا أجنبيًا (فرنسيًا أو غربيًا)، مما يخلق فجوة ثقافية مع بيئتهم المحلية.

4. **غياب سياسة ثقافية متكاملة:** لا توجد خطة وطنية واضحة لتطوير أدب الطفل تربويًا وفنيًا، بل تبقى الجهود مشتتة بين وزارات التربية، والثقافة، والإعلام.

5. **ضعف تكوين الكتّاب في أدب الطفل:** أغلب من يكتبون للأطفال ليسوا متخصصين في علم نفس الطفل أو في تقنيات الكتابة الموجهة للصغار.

6. **قلة النقاد والدراسات الأكاديمية:** ما تزال الدراسات النقدية لأدب الطفل الجزائري محدودة، وغالبًا ما تتناول الموضوع بصفة عامة دون تحليل فني معمّق.

سادسًا: المؤسسات والبرامج الداعمة:

رغم التحديات، هناك مبادرات إيجابية تشهدها الجزائر:

- ✓ وزارة الثقافة والفنون: تنظم مسابقات سنوية لكتابة القصة الموجهة للطفل (مثل جائزة الطفولة المبدعة)
- ✓ المكتبة الوطنية الجزائرية: تحتضن ورشات قراءة ورسم للأطفال.
- ✓ دور النشر: مثل دار «كلمة»، «العين»، «البرزخ»، «المعرفة»، بدأت تصدر سلاسل قصصية تربوية.
- ✓ قنوات التلفزيون العمومي والخاص: تقدم برامج للأطفال تجمع بين التعليم والترفيه، مثل "أصدقاء البيئة" و*"براعم الجزائر."*

سابعًا: آفاق تطوير أدب الطفل في الجزائر

لتجاوز التحديات الراهنة، يجب التفكير في آفاق تنموية تشمل الجوانب التربوية والثقافية والتكنولوجية:

1. **تأسيس مشروع وطني لأدب الطفل:** يتطلب وضع استراتيجية وطنية تربط بين وزارات الثقافة، والتربية، والاتصال، والجامعة، لدعم إنتاج ونشر أدب الطفل.

2. **إدماج الأدب التفاعلي الرقمي:** التحول نحو القصة التفاعلية الإلكترونية سيسمح بجذب الأطفال إلى القراءة بطريقة تكنولوجية ممتعة.

3. **تشجيع الترجمة العكسية:** أي ترجمة الأدب الجزائري الموجه للأطفال إلى لغات أخرى للتعريف بالهوية الثقافية الجزائرية عالميًا.

4. **تكوين الكتّاب والرسامين:** من خلال ورشات ودورات تكوينية في علم نفس الطفل، وتقنيات السرد التفاعلي، والكتابة المصوّرة.

5. **تعزيز التعاون مع الإعلام:** ينبغي تحويل النصوص القصصية إلى برامج تلفزيونية وإذاعية، مما يربط الأدب بالوسيط السمعي البصري.

6. **إشراك المدرسة والمكتبة في النشر:** تفعيل دور المكتبات المدرسية والمراكز الثقافية في نشر أدب الطفل وتنظيم مسابقات للإبداع الطفولي.

ثامنًا: تمثيلات تطبيقية من الأدب الجزائري

- ✓ قصة "زينة في عالم الألوان" – تأليف مليكة ماضي: قصة رمزية تربوية تعلّم الطفل قيم الجمال والتسامح من خلال ألوان الطبيعة، بلغة شعرية سهلة وصور جذابة.
- ✓ سلسلة "أنا والبيئة" – إصدار وزارة البيئة: قصص مصورة تربوية تزرع في الأطفال قيم النظافة والمحافظة على البيئة.
- ✓ مسرحية "النحلة المجتهدة" – إنتاج مسرح باتنة الجهوي: نموذج لمسرح الطفل الهادف، يجمع بين الترفيه والتوجيه الأخلاقي.

تاسعًا: التحديات المستقبلية

- ✓ العولمة الثقافية: خطر طمس الهوية الوطنية في ظل هيمنة الإنتاج الأجنبي.
- ✓ الرقمنة: ضرورة تحويل المحتوى الأدبي إلى وسائط رقمية تفاعلية.
- ✓ التمويل: الحاجة إلى دعم مادي حقيقي لدور النشر الصغيرة المتخصصة في كتب الأطفال.

✓ ضعف القراءة: تراجع عادة القراءة لدى الأطفال أمام الإدمان الرقمي.

عاشرًا: الخاتمة

إن أدب الطفل في الجزائر يُمثّل مرآة المجتمع وتطلّعاته التربوية والثقافية، ورغم ما يعتريه من نقائص، إلا أنّه يمتلك طاقة هائلة للتطور بفضل وجود كفاءات إبداعية، وموروث حكائي غني، وبيئة رقمية واعدة، والرهان اليوم هو الانتقال من أدبٍ تلقينيٍّ إلى أدبٍ مبدع تفاعلي إنساني، يعبّر عن الطفل الجزائري ويُربّيه على القيم والخيال والانفتاح.